نهاية غير طبيعية لمسرحية "أغنية على الممر"

قصة بقلم عادل أبو شنب

.. لعله وقف وادى التحية العسكرية ، وهو يرنو بعينيه الرماديتين الضيقتين الى الرجل ذي القميص الاحمر الذي دخل الغرفة لتوه ، (نسي الان كيف بدأ كل شيء) قبل ان يخرج الكلمات من بين شفتيه المتشققتين :

ـ اللحن جاهز . بسره : يا افندم) حملته معي من سيناء .

قال الرجل ذو القميص الاحمر بشيء من التواضع المصطنع :

ـ اهلا . من انت ؟.. وعن اي لحن تتحدث ؟

أجاب بسرعة :

ـ انا المجند ....

وقاطعه الرجل ذو القميص الاحمر :

ـ اجبني باختصار .. من انت ؟

قـال :

ـ أنا ، يا سيدي ، واحد من خمسة رجال صمدوا في ممر هناك ، نضب طعامنا وشح ماؤنا وقلت ذخيرتنا ، (بسره مرة اخرى : يا لبلاغتي) ومع ذلك وقفنا في وجه زحف اسرائيلي (غادر .. في البلاغات الصحفية) ، وسقط من سقط ، وبقي اثنان ، انا واحدهما.

« حدث ذات يوم من ايام حزيران ما ، بعيد ، (يونيو كما يسمى، او الشهر الاسود .. لقبه الرسمي في بعض المناطق العربية) ان حمل مؤلف مسرحي فلمه ، وكتب مشاهد مسرحية متلاحقة ، ربطها بأغنية تحوم ، كفراشة ، فوق رؤوس نظارة كانوا قد تمركزوا ، ببقايا ذخيرتهم وراء تل سيناني (مكان استراتيجي جدا كما قال المؤلف على لسان الشاويش الصعيدي) واعاقوا تقدم دبابات العدو نحو القناة . »

قال الرجل ذو القميص الاحمر وقد فهم جانبا من المسألة . (بالضبط .. عرف انه امام جندي ما من جنود بلاده العائدين من الجبهة) بشيء من اللين :

ـ طيب .. طيب ، ماذا تريد ؟ تحدثت عن لحن جاهز ؟

وضع على وجهه ابتسامة ، وقرب ورقه من وجهه وقال :

ـ اللحن جاهز ، حملني اياه زميلي قبل ان يستشهد . كتبه وهو جالس وراء صخرة في الممر . كان يدمدم بشفتيه اللحن ، ثم يكتب على هذه الورقة ، وكثيرا ما كان يشغل عن اللحن .. عندما كنا نتعرض لهجوم مباغت ، على انه فرغ من اللحن قبل ان يستشهد بساعات ، وها هي آثار دمه على الورقه .. كأنها توقيعه . اللحن رائع يا سيدي ، ولد في المعركة مع نزيف الدم وهدير المدافع .

« .. وكل ما في الامر ان شيئا ما ملهبا ، عقب الايام الستة السوداء (يسمونها ، خارج الحدود ، حرب الايام الستة) قد جعل الدم يغلي في عروق المؤلف (حافزه للكتابه فوق صهوات الطموحات انا) وهكذا ولدت المسرحية ـ الملحمة التي قد تكون مخيلة ، لكنها رمز للناس النكرات ، الذين يصنعون في انفس اللحظات ، وبعكر او بغير طيبة جعل المؤلف .. الوصي على اللحن يعود الى جانب الشاويش الرابض على التل ، ليقابل معه ، بعد ان مشى في اتجاه القناة بضعة امتار .. »

قال الرجل ذو القميص الاحمر (وبالضبط عرف الان انه امام واحد من طلاب الشهرة الذين يترددون على الاذاعة بالمئات ، حاملين ما يسمونه موسيقى حماسية ، وان هذا الجندي يركب المناسبة ليمرر لحنا يثبت به قدمه في عالم التأليف ، ولكن .. هيهات) بشيء من الغلظة :

ـ وانت . ما هو دورك حتى تحمل اللحن الينا ؟

قال وقد اشرق وجهه بابتسامة سعيدة ، قافزا على كومة من الغلظة ، جوبه بها الان لاول مرة :

ـ أنا .. حامل اللحن اليكم .

كيف تمكنت من المجيء ؟

ـ .. الى الاذاعة ، ام الى الضفة الغربية ؟ لمجيئي الى كل منهما قصة طويلة ..

ـ قص علينا ، ولكن باختصار شديد . (لديه مواعيد مع مطربة وملحن شهير ومؤلف اغان مكرس لام كلثوم ، ومخرج اذاعي ينتج كل شهر مسلسلة بوليسية تهز العالم من المحيط الى الخليج)

وجلس دون ان يستأذن . كان يشعر انه متعب حتى العياء ، فلقد حمل اللحن عبر ما تبقى من الصحراء ، وسبح به في القناة ، واجتاز مئات الكيلومترات الخالية من الناس ، حتى وصل القاهرة ، وقبل ان يمضي الى اي مكان آخر .. حمل اللحن الى الاذاعة .. (وكان على التحديد يظن انهم سيستقبلونه بترحاب شديد) .

ـ مؤلف المسرحية حلق هذا الدور لي . جعلني وصيا على لحن زميلي ، وها انذا احرر نفسي من هذا القيد . اللهم اني قد بلغت ..

قال ذو القميص الاحمر ، وهو يجلس على اريكة جلدية ، ويضع رجلا فوق رجل :

ـ لم تجب على السؤال .

بدا يشعر (احساسه الداخلي صادق ابدا ، وان كان ذلك يتعارض مع كفره ، كمثقف بالغيبيات) ان الريح ليست مؤاتية . نظرات الرجل ذي القميص الاحمر ... تبدلت .

ـ أانا في تحقيق ؟

ـ لا بد لنا ، كمسؤولين هنا ، من ان نعرف جميع الظروف والتفاصيل .

ـ كيف تمكنت من المجيء ؟ معكم حق . جعلني المؤلف استنكف عن المجيء بعد ان قطعت شوطا . جعلني اعود لاقابل واللحن ما يزال في جيبي ، لكنني بعيدا عن هذه الخاتمة الدراماتيكية تعرفت كما اريد . (شعر وقتئذ لاول مرة بانه يخطط بنفسه لافعاله) اصبحت مؤلفا ، انا الاخر ، فرسمت دوري من جديد على اساس انني تركت الشاويش (الريفي المسكين .. ابو الاطفال والارض والبقرات) وحيدا وجئت

اليكم ، لاحقق امنية زميل فنان ، اراد للحنه ان يعيش ..

« امام المؤلف الرجال الخمسة ، واحدا بعد الاخر ، امعانا في هز مشاعر مجهوده ، وجعل احدهم (ملحن مجهول جدا) يختلس من وقته في جلسته تلك وراء مدفعه ، هنيهات ليكتب لحنا للاذاعة : (هنا القاهرة ..) يهز به مشاعر الناس من المحيط الى الخليج ، يحكي عن صمود في المر .

قال ذو القميص الاحمر بعد ان وقف فجاة ، مأخوذا بفكرة ان يصارح هذا الجندي (الواقع انه مجند) العائد من سيناء ، (قال في نفسه : دون ان يشعر بذل الهزيمة يعود) بلحن ما ، (كان الـذي حدث نزهة يشمر الفنانون فيها عن سواعدهم لتهيئة شيء ما يناسب المقام) :

ـ أأكون قاسيا ان قلت : لقد تركت مكانك من اجل اللحن ؟

ـ الواقع انني لم اترك مكاني . المؤلف جعلني اعود . انـا (كمؤلف ثان ، متطوع) تابعت المشوار .. وحدي .

ـ هذا لا يبدل من الامر شيئا .

وضع ازورارا ما بين حاجبيه وامتلات عيناه بالغيوم (كدخان القنابل في سيناء) وقال بنزق :

ـ طيب . طيب . لنقل انني قررت . تمردت على الدور الذي رسمه المؤلف . ولكن الا يستحق اللحن .. هذا العناء ؟ اللحن ، اؤكد لكم ، ايها السادة ، رمز للصمود . سمعته من فم زميلي واعجبت به. كان معنا ونحن نقاتل كأنه سيف علي بن ابي طالب . أليس لهذا قيمة في نظركم ؟

ـ تخرج مرة اخرى عن الموضوع .

ـ لماذا ؟

ـ اللحن ليس لحنك .

ـ صحيح . ما انا الا رسول .. متطوع .

ـ ثم . ما الذي يثبت ان اللحن لصاحبك ، وانه الفه في سيناء مع هدير الدبابات وصراخ المدافع ولعلعة ...؟

وقاطعه :

ـ انـا !

ـ انت ؟

ـ نعم انا . جندي قادم من سيناء ، على وجهه شمسها اللاهبة، وفي ثيابه عرق المعركة التي تعرفون ..

ـ ليس هذا بدليل كاف الان . آلاف جاءوا مثلك من سيناء ، وعلى وجوههم شمسها اللاهبة ، وفي ثيابهم عرق المعركة التي قرانا وسمعنا عنها ، وفي اجسادهم اثار واثار (شخصيا .. زار احد الجرحى من اقربائه في مستشفى خاص بالقاهرة ، واحس بنقمة عارمة على العدو، لان الاطباء المصريين قطعوا ساقه اليمنى في عملية جراحية يائسة لئلا تمتد الغرغرينا الى الاعلى)

ـ اعرف ذلك ، لكنني ، لكنني ..

شعر الرجل ذو القميص الاحمر انه ملك زمام الموقف فقال :

ـ ماذا ؟ تتلعثم ؟

ـ جئتكم بلحن رمز . المسالة لا تخصني شخصيا (شعر بارتباك شديد ، وان اسلاكا شائكة تحيط به) لكنها تعنينا جميعا .. كوطن .

قال الرجل ذو القميص الاحمر ، بعد ان نفث دخان سيجارته (يدخن كليوباترا .. اي صنف آخر رديء) في وجهه :

ـ الوطن ليس كلمات او الحانا ..

ـ صحيح . انا معكم في هذا الموقف . (الواقع ان من الامور التي حيرته باستمرار ان يعطي وصفا محددا للوطن) انـا ، ان شئتم ان تتعرفوا جيدا عليّ ، مثقف حقيقي (خائب : بينه وبين نفسه) ، اعرف ان الوطن شيء ما اكثر من الكلمات والالحان ، لكن اللحن، هذه المرة ، يجسد جزءا من تكهة الوطن .

ـ لسنا بحاجة الى محاضرات في هذا الخصوص (.. من هذا المكان تصنع الكلمات والالحان التي تلهب المشاعر في الواقع) حدد ما الذي تريده باختصار ؟

ـ أريد ان أعطيكم اللحن . (فكر اكثر من مرة ان يعدل ، وها هو يفكر بان يترك اللحن يهوي على ارض الغرفة .. ويركض)

ـ الامر بهذه البساطة لو كنت المؤلف . اما وانك شخص آخر ..

وقاطعه بحدة :

ـ لست شخصا آخر .

ـ أانت المؤلف ؟

ـ كلا . لكنني ، بشكل ما ، شاركت في تاليفه .

« وكان من بعض ما اراده المؤلف ، يقول نقاد المسرحية (اخرجت فيلما .. بل فيلمين لتعزيز فكرة الصمود) ان يجعل الاغنية جنحا اجنحة الملائكة ، يحتضن موقف الرجال الخمسة ، ويسبغ على البسالة المكابرة معنى بارزا .. في عتمة ليل حزيران الاسود جدا . (بعد خمس سنوات مضت بسرعة هائلة لم تترك المسرحية تاثيرات مباشرة : كالقيام بثورة ، او الغاء السلطة او تجنيد الشعب في معركة تحرير شعبية ، وكل ما حدث انها خدرت كأي مخدر آخر مئة مليون نسمة ، او على الاقل من شاهدوا العروض المسرحية او الافلام التي انبثقت عنها ..) » .

واقترب الرجل ذو القميص الاحمر منه وكاد ان يمسك به :

ـ وتدعي اللحن لنفسك ؟ (من الملاحظ ان سرقة الالحان امر متداول جدا في الاوساط الفنية)

ـ يا سيدي ، أنا لا ادعي شيئا . كنت واحدا ممن صمدوا .

ـ أانت واثق انك صمدت فعلا ؟ (بنبرة مسرحية) .

قال وهو يضع كل صدق العالم في الكلمة :

ـ طبعا .

ـ وجودك الان ، بعيدا عن سيناء ، دليل حاسم على انك لم تصمد . (الملاحظة من حيث الواقع صحيحة) .

ـ لكنني لست هنا .

ـ أهو لغز ؟

ـ كلا . جعلني المؤلف اعود لاقاتل حتى النهاية . أنا الان ، في المسرحية ، صامد الى جانب الشاويش ، وربما اكون قد قتلت معه.

ـ لكنك لست هناك ولم تقتل ..؟

ـ حدث هذا التعديل عندما اصبحت المؤلف . (فكر على هذا النحو : لماذا اربكت نفسي بحمل اللحن ، بل لماذا زاولت مهنة ليست لي في الاصل ؟)

ـ الغاز .. الغاز ..!

وقال مكابرا :

ـ بل طبيعة الامور . ماذا يحدث لو ان احدا كلفك بايصال رسالة هامة ؟ اللحن جاهز . خذوه مني واريحوني ارجوكم . المسالة اكثر بساطة من كل هذا النقاش . (دوي المدافع ما يزال في اذنيه)

وقال الرجل ذو القميص الاحمر (مواعيده كثيرة للغاية اليوم كما اسلفنا) يحسم النقاش :

ـ اعطنا اللحن .. واياك ان تنصرف . هناك معلومات كثيرة يجب ان نعرفها ..

ـ اريد ان اذهب . انا متعب ايها السادة ، ولقد انتهت مهمتي الان ..

وامسكه الرجل ذو القميص الاحمر من قميصه الكاكي اللون فعرف ان المسالة لم تمر كما يشتهي ، واظلمت الدنيا في عينيه (كما يقول الكتاب التقليديون) وانتهى الفصل الاول من الحكاية (وهي الحكاية التي رواها حامل اللحن ، بعد التعديل الذي طرأ على دوره ،باختياره الناجز دون تدخل من مؤلف المسرحية ، او من مؤلف القصة ، الذي جاء بعد خمس سنوات من حرب حزيران لينبش الجثة من جديد) .

عادل ابو شنب